المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع والتسعين

١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ — ٢ ذي القعدة سنة ١٣٥٩

لماذا نحارب ؟

بحث نفسي مقابل

في بواعث القتال والاعتداء في طبيعة البشر

ليس الغرض من هذا البحث تبيان البواعث التي حملت هذه الدولة أو تلك على خوض غمار هذه الحرب الطاحنة . ولكن الغرض منهُ الرجوع بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية التي من وراء الحروب الى أصولها في طبائع الناس . وأغلب الرأي في ما يلي للفريق من علماء النفس المجرّبين في الولايات المتحدة الأميركية

يدلُّ بمشاهدة القردة والأطفال وتجربة التجارب بهم ان هناك بضعة عوامل أساسية بسيطة تبعث على القتال واعتداء الأفراد بعضهم على بعض

وأحد هذه العوامل هو النزاع على امتلاك الأشياء المادية . كالنزاع على الطعام او الملابس او اللُّعب او الإناث

ومما هو جديرٌ بالنظر في بحث هذا النزاع على المُلك ان المتنازعين قد يصلون في النزاع الى أقصى درجات العنف فلا تسلم الاشياء التي يتنازعون في سبيلها من تلف أو الدمار . فالمادة تمزّق قطعاً قطعاً . والاثنى تقطع شلواً شلواً . حتى لكأن الاعتداء نفسه يتملك النفس ويحكم بعد امتلائه فيعدو حتى حدود الأثرة المقبولة . فالنزعة إلى امتلاك شيء من الى تدميره

ثم نوحظ في الاطفال خاصة ان الشيء الذي يكون موضوع النزاع بغتة متلاكه قد يكون في بدء النزاع و فيه مرموقاً من طفل واحد لا غير. فاذا تحولت هذه الرغبة فيه تعدّته الى غيره فيبدأ النزاع على شيء لم يكن مرغوباً فيه من احد الفريقين المتنازعين. ولكن رغبة الفريق الآخر يقظت شعور المنافسة على امتلاكه فكان النزاع

ولاحظ احد الباحثين السيكولوجيين بأم عينيه حوادث نزاع كثيرة كان النزاع عليها لعباً بدت من احد الأطفال فما بدت رغبة آخر فيها حتى في عينيه او عيني غيره وغدت سبب نزاع بين الفريقين. واذن فرغبة التملك قد تكون غيرة أمعى محرّك العقل ومعرفة قيمة الشيء الذي يراد امتلاكه

ومن بواعث الأعتداء ميل القردة والأطفال الى التسخط على الدساس غريب في جماعتهم فالطالب الجديد في فصل من الفصول قلما ينجو من الغطيطة وبعض التسخرية في ايامه الأولى. والفرد الدخيل على جماعة قلما ينجو من وخز وعضّ قد يفضيان به الى الموت احياناً

والغالب ان هذا التسخط مردّهُ الى الغيرة وهي ترتدّ الى خوف المنافسة. ودليل ذلك في عالم النفس التجريبي المقابل ان الاطفال لا يسخطون اذا دخل على جماعتهم كلبٌ وانما يسخطون اذا دخل على جماعتهم طفل غريب. والقردة لا تستثار اذا دخل على جماعتها حيوان او ماعز ولكنها تسخط اذا دخل على جماعتها قرد من نوعها

واخيراً هناك سببٌ اساسيٌّ بسيط يمت الاطفال على القتال وهو الشعور بالخيبة او ما يواجهونهُ من عقبات تصدُّ فيض نشاطهم. فقد يمنع الطفل من ركوب عجلة قصد النزه إما لأسباب طبيعية كالمرض او عدم ملاءمة الجوّ وإما لمعارضة من هو اكبر منهُ وهم سلطان عليه. وقد يشتد شعور الطفل بالخيبة لعجزه عن القيام بالعمل الذي يتوق اليه إما لاعتلال صحته وإما لضعف في كيانه. فان صدّ من هذا القبيل يغضب ويتكدر ثم ينفس غضبهُ وتكدره بالاعتداء على غيره

واذا اشتد القتال بين القردة فانهُ ينتشر انتشاراً سريعاً في الجماعة، ويجذب الى دوّامه افراداً لم يكن لهم صلة و شأن بالاعتداء الأول، ولا مصلحة لهم في استمرار هذا القتال. فكأن القتال مرض معد تنتشر عدواه بسرعة عظيمة

فما سرّ في ذلك؟

ليس من السهل تحقيق السبب

قد حوّل بعض الذين درسوا بين تصرف القردة والأطفان من ناحية، وتصرف الكبار من ناحية اخرى، في حالة الاعتداء والقتال، فقالوا انهم يجدون فرقاً يذكر. واذا كان هناك فرق ما فكفة الاشتداد في العدوان هي كفة الكبار. والتاريخ يؤيد الحديث يؤيد هذه النتيجة. أيدت من قبل في الشعوب. فالشعوب أصبح امرها شيئاً فشيئاً مرة أخرى في حالة من الغالب

التعذيب وأدواته الحديثة أفتك وأدق وأوجع من أساليبه وأدواته في عصور الظلام . ثم ان طرق التعذيب الفكرية أصبحت من الوسائل المألوفة في السجون والمعتقلات . وليس بين الحيوانات حيوان يستطيع ان يباري الناس في عنف عدوانه وايصاد كل باب للشفقة والرحمة دون عذاب المعتقلين وألمهم

وعندما ندقق في البحث نجد فرقين اثنين بين الاعتداء كما تمارسه الحيوانات والأقوام التي لاتزال على الفطرة ، والاعتداء كما يمارسه الكبار والجماعات المتحضرة في عصرنا . فالثاني يكون على السوم عمل الجماعة سواء أحزباً سياسيًّا كانت الجماعة أم طبقة دينية أو اقتصادية أم دولة ذات سيادة . بينما الأول يكون فرديًّا على الغالب

والفرق الثاني أن قدرة الكبار على التخيل والتفكير توجههم الى تأييد بية الاعتداء فتبتكر الأساليب وتتقن وتوضع النظريات الفلسفية والتاريخية وتؤيِّد . فالتردة والأطفال عندما يقاتلون لا يتعدون القتال الى تسويغه أو تفسير البواعث عليه . ولكن الكبار منتظمين في جماعات — سواء أأحزاباً كانت أم دولاً — ينشئون فلسفات ويشيدون علالياً من المثل العليا قبل الشروع في قتل بعضهم بعضاً . فجماعة تقاتل في سبيل المذهب البروتستاني وأخرى لتحرير طبقة العمال أو لإملاء الثقافة التوردية على الناس ونشرها في العالم . ان الكبار يموتون في سبيل نظرياتهم

***

ومن أسباب الحرب ما يتجلى في بحث النزاع بين الطوائف البدائية التي لاتزال على الفطرة . ففي هذه الطوائف يتجلى ميل الى اسناد الحوادث — سواء أطبيعية كانت ولا مفر منها ، أم انسانية تقع بالاختيار — الى مشيئة شخص انساني أو الهي . فاذا عصفت عاصفة أو زلزل زلزال أو افترس بر رجلاً ، فالحادث يسند اما الى سحر تمارسه قبيلة مجاورة وإما الى غضب الشياطين أو سخط الآلهة . وكذلك يسند حسن الحال الى شخص من هذا القبيل

هذه النزعة التخيلية في الانسان تفضي الى الحرب . فالسذج في جميع الشعوب يميلون الى اسناد الشر الى شخص أو جماعة . وهذا مبدأ لا يستطيع أحد ممن يدرس السياسة ان يجهله أو يتجاهله . فالسياسي يحاول ان يُلصقَ تهمة شر ما على خصمه السياسي . وكذلك ترى حركات اجتماعية تتخذ من أصحاب البروك شخصاً مشؤوماً تلصق عليه جام الغضب بعد أن تسند اليه الشر الذي يعانيه الناس . وأخرى تتخذ من اليهود أو الشيوعيين أو ذلك الشخص المعنوي ، وبعد ذلك يوصف بالخبث والخطر وما شاكل ثم تجمع جنوداً للاعتداء مبرراً في قوالب شتى

وهذه النزعة الى الرد على الخيبة والعدد ، والميل الى اسناد الشر الى شخص أو

جماعة ، هي الأسباب الرئيسية لنزع بين الجماعات ، سواء أكانت جماعات أم طبقات أم دولاً

ان السواد الأكبر من الأطفال محرومون الوسائل اللازمة لاشباع ميولهم . والادلة متواترة على ان هذا المنع او القمع يفضي الى انفعال عنيف أساسه الخوف فالمقت ونتيجته الاعتداء . فالسخط والاعتداء اللذان يليان الخوف نطلق عليهما الاعتداء البسيط

والطريقة المألوفة في معالجة الاعتداء البسيط تفضي الى حرمان آخر . فيصفع الطفل او يضرب فتكون نتيجة العقاب ان يقوم في نفس الطفل نزاع بين الميل الى الاعتداء والخوف من العقاب

وهذا النزاع في الطفل مصدر من أهم مصادر الاعتداء في البالغ . فالنزاع نفسه نزاع بين ميل أصيل — وهو السخط من المنع او القمع — وبين الخوف من العقاب او الخوف من فقد حب من يُحب . وكلاهما أصيل كذلك . فالوالد او الوالدة في نظر الطفل مصدر للرضى وللسخط في آن واحد . ولذلك يميل الفرد في كثير من الأحيان الى حل النزاع بكبته اي اخفائه . ولكن مهما يتستر النزاع في النفس ويتخفى باستتار فوقها استتار لا يزول مطلقاً ولا بدّ ان يظهر مفرغاً في قوالب شتى . فالطفل الذي لا يستطيع ان يصفع اباه لأنه أكبر منه وأقوى ويخشى عقابه يصفع طفلاً مثله أو أصغر منه لأنه لا يخشاه . فنزعة الاعتداء المختفية في نفس الطفل تحوّل الفعل الى « بلطجي » صغير

وعلى النمط نفسه نجد الثوّار والفوضويين الذين يعملون على الحكومات المنظمة ، وكذلك الغلاة في الوطنية الذين يمقتون الشعوب الأجنبية ، ومتطرفي النظريات الاجتماعية الساخطين على أصحاب البيوت او خصومهم السياسيين ، يشعرون في كهولتهم آثار نزاع نشأ فيهم صغاراً عن ميل الى الاعتداء البسيط كبتهُ صغر الوالد او تنبيهه ، فثار في النفس الى ان حانت له فرصة الظهور

***

في كثير من حالاتنا النفسية التي تثيرنا او تقلقنا نجد في أحد أطرافها للتخلص من قلق والنزاع الداخلي الذي يساورنا . أما الأطراف فهو أشياء خارجية ، وهو شائع ومرسوم في الحياة السياسية . وإذا أحسّ شخص او بغضه او محبتنا لشخص الأصيل الذي حقده او بغضه او محبته الى شخص آخر . وقد يكون الشخص الآخر من نحب او نبغض أو نحب لذاته ولكن اذا حوّلنا حقدنا او بغضنا او محبتنا من آخر اليه ، صبح الشعور الذي يربطنا به عنيفاً ملتهباً . فالخوف شديد يكاد يكون ذا ... والبغض شديد يفرد من ان يكون كرهاً ، والمحبة شديدة تبلغ مرتبة الهيام

وقد لا يقتصر هذا التحويل على تحويل الشعور الذي يملكنا من شخص الى شخص بل قد يكون تحويلاً من أشخاص الى هيئات او جماعات كالدولة أو الأحزاب السياسية فيها . وهذا التحويل يكاد يكون عامًّا . ولذلك قلما تخلو الحياة السياسية من النزاعات العنيفة

والتحويل يكون عادةً الى شخص أقل خطراً من الشخص المحوَّل عنه . فالطفل الذي يحوِّل غضبه من والده لأنه يخشاه ، يحوله الى طفل مثله أو أصغر منه لأنهُ لا يخشاه . والرجل أسهل عليه ان يمقت النظام الرأسمالي من أن يمقت زوجه ، وأسلم عاقبة له ان يندِّد بالشيوعيين من ان يندِّد بالشركة التي يعمل فيها . وبهذه الطريقة ، طريقة التحويل يقل الخوف والقلق ولكنهما لا يزولان ، وبذلك تزداد سعادة المرء زيادة متفاوتة

فاذا نقلنا هذا القول من ميدان حياة الفرد الى ميدان حياة الجماعة بيَّنا أصلاً من أصول الاعتداء الدولي . فالاعتداء في الكبار يكون على الغالب ناحية من نشاط الجماعة . وبعض الجماعات لهُ القدرة على ان يجذب اليه ولاء الاعضاء فيوجه سخطهم وحقدهم واقدامهم على القتل ، توجيهاً خاصًّا بأسلوب التحويل هذا . فجماعة الوطنيين الاشتراكيين وجهت سخط اعضائها وحقدهم الى اليهود والشيوعيين . أما السخط على الأول فلم ينقض وأما السخط على الشيوعيين فتقتضي الأحوال السياسية كتمانهُ وكونه الآن

ثم هناك أسلوب آخر لابدَّ من تقصيه لفهم طبيعة الفرد والجماعة . وهذا الأسلوب مردُّه الى التخيل كذلك . ولكنه تخيل من نوع آخر . وبه تتخيل الناس متصفين بصفات نأبى ان نعترف بوجودها في طبيعتنا

فالنفس بحسب رأي علم النفس الحديث ، ولاسيما مدرسة فرويد وما تفرَّع عليها ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الناقص المغمور بالظلام وفيه الرغبات والغرائز الأصيلة ، والذات وهي التي نعيش بها في هذه الدنيا ، والذات العليا التي تعمل عمل الرقيب أو الضمير المحاسب

ونحن كثيراً ما نحسب الناس أشراراً بفعل بواعث مسيطرة على طبيعتهم من ذلك الجزء السفلي . ولكننا في الوقت نفسه نأبى أن نعترف أن هذه البواعث لها وجود في كياننا الخفي أو أنها تؤثر في ذاتنا . ومن ناحية أخرى نحسب أن ذاتهم العليا تدقق وتحاسب على وجه لا تقيمه ذاتنا العليا في محاسبتنا

ومن الأمثلة التي تضرب على النوع الأول من التخيل أننا كثيراً ما نجد من هو دسَّاس بطبعه الخفي يعتقد ان جميع الناس يحيكون لهُ المؤامرات ويدسون الدسائس . أو من هو خسيس شحيح في عقله الباطن ، ثم يقضي الحياة زاعماً ان جميع الناس أخساء أشحاء

ومن الواضح في هذه الأمثلة ان الفرد يزعم ان الناس يعاملونهُ كما هو ... أن يعاملهم

أو أنهم يسيّرون ببواعث وقوى هي في الحقيقة البواعث والقوى التي تحركه وتسيره. فالشجيع الخسيس يسند الى الغير باعثهُ الحقي الى الجبن والاختلاس

ومعظم حوادث الاضطهاد السياسي من هذا النوع. وإن اختلف مظهرها. الاّ ان وجود هذا المبين لا يفسر لماذا يستمر الاضطهاد عند ما لا يكون المضطهد يخشى خطراً أو أذىً. ومع ذلك يستمر

وجميع نظم الحكم القائمة على مبدإ الزعامة والعصبان تتخذ هدفاً تركز من حوله الميل الى الاضطهاد. وقد يكون الاضطهاد مطلوباً لأسباب موضوعية، كوجوب اتخاذ فرد أو جماعة مسنداً يُسند اليه او اليها الاخفاق أو الجبن، أو للتوسل بها هدم الخصوم والمنافسين. ولكن علاوة على هذا هناك في الاضطهاد عنصر من عناصر هذا النوع من التخيل، هناك اسناد الى الغير ما يجهله أو يتجاهله من بواعثنا الخاصة الخفية

والأقليات المضطهدة هي الأشخاص المطلوبة التي تسند اليها شرور الطبقات السائدة. وفائدة هذا الأسلوب واضحة. إنهُ يخفف قلق النفس الحقي، لأنهُ أسهل أن نحتقر الناس لخسة تسندها اليهم أو نسوء ظنهم وريبتهم بالناس من ان نمقت نفسك ونحتقرها لخسة او ريبة فيك. فبذلك يتملص المرء من عبء الشعور بالاثم

وقد تقوم ذات المرء العليا، او رقيبهُ النفسي، او ضميره، بتوجيه النقد الى ما يعمل والحكم عليه حكماً قاسياً، ولكن هذا لا يرضيه لانهُ يجعله عبئاً نفسيًّا فادحاً. فالحي يتملص من هذا النقد، وذلك الحكم، بحوّل نقدهُ وحكمهُ الى غيره من الناس. وهذا يعني بدوره الى حالة شاذة اذ يبدأ المرء المطبوع على هذا الغرار يبرم بالأحكام الأدبية والقانونية — وكثير منها يكون متخيلاً لا وجود لهُ في الواقع — التي تفرضها الدولة عليه فينقلب وضوئيًّا

واذن فالاعتداء البسيط في طبيعة البشر مردهُ الى غريزة الذات، والنفور من الطارىء الغريب عن الجماعة، والخيفة أو الخشل. والفرق بين الفضيلة والفردة من ناحية والنكبار من ناحية اخرى ليس فرقاً أصلياً ولكنهُ فرق أسلوب في معالجة الحاجات المختلفة

ان النظام الذي يكبت الاعتداء لا يزيلهُ ولكنهُ يدفعهُ الى الغور في طوايا النفس فيظهر مفرغاً في قالب آخر. وهذا التحوّل انما يكون بين أسلوبين أو صنفين الأول أسلوب التحويل والثاني أسلوب الاسناد. وغرضهما تخفيف الجزع الداخلي الناشيء في النفس عن براثن الاحباط والتنديد، او النقص والتقصير. وهذا يفضي الى ظهور الاعتداء في أشكال تتحلى في اعتداء الكبار، ولا سيما اعتداء الجماعات، في اتباع الحزبي، وحروب الأهلية، وحروب الدين، والحروب الدولية بوجه عام

في هذه الحالات يتخذ الاعتداء شكلاً اجتماعيًّا . ورغبة من الجماعة في تسويغ اعتدائها أمام العالم الخارجي وأمام أفراد الجماعة نفسها ، بغية حمل الجميع على قبول الاعتداء والتسليم به من الناحية الأدبية ، يعمد اعضاء الجماعة او فريق منهم الى انشاء المذاهب والنظريات ، كمذاهب التاريخ ونظريات السلالة والعنصر والدين وغيرها

أي أنهم يتخذون الدوافع الفطرية ، ويبنون حولها هيكلاً يشيده العقل لكي تظهر الدوافع معقولة لها ما يسوغها . ومن غرائب الطبع البشري أنك تجد شيئاً من الصحة في كل نظرية او مذهب من هذه النظريات والمذاهب ولكن معظمها فاسد خاطيء ، لا بمدى كونهُ تسويغاً لما يأكل النفس من مقت ، ودفعاً عما تجري به الأيدي من عنف وقساوة

إن الأمم تحارب في سبيل التملك ، او في سبيل البغض الناشيء عن اسناد الضرر اللاحق بها الى أمة أخرى او طبقة أخرى من الناس ، او لشعورها بالحيرة والفشل وتصدّي الخلق لها لمنعها عن تحقيق ما تريد

والموافقة المتبادلة بين أفراد الأمة على عمل ما يحذف قبل الضمير او الرقيب من تقديرها ، ولذلك ترى الدول تتحارب لنفس الأسباب التي يتحارب الاطفال من أجلها

وقد يكون أبناء الدولة على جانب من العلم ، ولكنهم يبغون مرتبة من الشعور بالحيرة ، والاحساس بشقاء النفس ، حتى يصعب عليهم ان يتحملوا عبء هذا النزاع النفسي الداخلي في صدورهم . فأمم من هذا القبيل ، او أمم فيها طبقات متحكمة متصفة بهذه الصفات ، هي في المعنى الأصيل من الاعتداء ، أمة معتدية

ذلك بأنها تكون قد بلغت درجة من النزاع النفسي لا قرار لها معها ولا اطمئنان ، فتغدو الحرب ضرورة نفسية لها لا مفرَّ منها . وفي هذه الحالة تشبُّ الحرب لغير سبب معقول او عذر واضح . قد تتوسل الحكومة بحادثة تافهة ولكن السبب الحقيقي ، ولكن الدافع الأصيل ، الى الحرب هو في داخل النفوس المذنبة ، نفوس الأمة المعتدية

هذه هي إذن أسباب الحرب الدولية مستخلصة من طبيعة البشر ، فالحرب تقع لأن القتال ميل أساسي في الناس ، ولأن القتال ضرب من السلوك يحفز اليه الأطفال والفردة وجماعات البشر والأمم ، تيامُ أحوال معينة منها الرغبة في الحيازة ، او الحيرة عن تحقيق رغبة ، او الخوف من منافسة الأغراب ، او تحويل البغض الكامن في النفس من شخص او جماعة الى شخص آخر او جماعة ثانية . كل واحد من هذه الأسباب يحفز الى الاعتداء ، وليس في الوسع ، بحسب ما نعلم حتى الآن ان نقدم أحداً منها على الآخر من حيث تأثيره . ان ذلك رهن بحال الاجتماع